لغـــو الصيف

للدكتور طه حسين

— ٢ —

من هنا ، ياستاذ من هنا ! واثذن لى في أن اسعى بين يديك فلا بد لك من دليل . ثم سعت امامه رشيقة انيقة فى طريق طويلة جميلة ، يحفها من جانبيها الشجر والزهر ، وفيها قليل من ضيق ، وشيء من التواء . وقد استمتعت الاشجار القائمة على جانبيها بشيء من الحرية عظيم لا يستمتع به الناس فى هذه الأيام ، فمدت اغصانها كما شاءت فى غير نظام ، حتى اختلط بعضها ببعض والتف بعضها ببعض . وجعلت الآنسة تسعى أمامى رشيقة رفيقة ، وتجدّ فى التفريق بين هذه الاغصان الملتفة المتعانقة لتشق طريقها وطريق صاحبها ، وكأنها كانت تجد فى ذلك شيئا من العسر اللذيذ ، فكانت تحاول ان تعتذر بهذه الجمل السهلة اليسيرة الفارغة التي تقال فى مثل هذه الحال : ليست الطريق سهلة هنا ، يجب أن تحتاط ، وما رأيك فى هذه الاغصان التى تريد أن تداعبنا وان لم نطلب اليها المداعبة ؟ حقا لقد اسرفنا فى اهمال هذه الاشجار فاسرفت فى الانتفاع بحريتها . وكان صاحبها يجيب على هذه الجمل بضحك فارغ لايدل على شيء الا على انه لم يكن يجد ما يقول . لأنه لم يكن يسمع لهذه الجمل التى تلقى الا باحدى اذنيه . وقد كانت نفسه كلها مفتونة بهذه الطبيعة الحرة المطلقة ، وبما بينها وبين حياة الناس فى هذه الأيام من تناقض واختلاف . ولعله كان يعجب بهذا القوام المعتدل الذى كان يسعى أمامه فى رفق ، ويجاهد هذه الاغصان فى لباقة وظرف ، ولكنه كان يخفى حتى على نفسه هذا الاعجاب الذى لو أحسته صاحبته لضاقت به ضيقا شديدا . حتى اذا طال سعيهما فى هذه الطريق الخفية الملتوية انتهيا الى رقعة واسعة رحبة من الارض ، قد فرشت ببساط ناعم كثيف من العشب ، وانتثرت فيها قطع بديعة من الزهر ، قد نسقت أحسن تنسيق واجمله ، وقامت فى وسطها مائدة قد نثرت عليها أوراق الورد فى كثرة تلفت النظر . فلما انتهيا الى هذا المكان الهادىء الباسم الجميل ، ارسلت من صدرها زفرة ضاحكة وهي تقول : لقد انتهى الجهد وآن للتعب أن يستريح ، اجلس ياسيدى فهنا يحسن الحديث فيما اظن . قال : بل هنا يحسن الاستماع . قالت : الاستماع لمن ! الاستماع لماذا ؟ قال : الاستماع لك والاستماع لهذا الصمت الناطق من حولنا . قالت : دع عنك الاستماع لى فما احسب الا انك قد سئمته ، او ستسأمه ، وما أحسب الا انك قد زهدت فيه او ستزهد فيه حين يستأنف بيننا الحوار ، فسيستأنف بيننا الحوار من غير شك ، ولكن حدثني عن الاستماع للصمت كيف يكون ؟ وحدثنى عن الصمت كيف ينطق أو كيف يصدر عنه الكلام ؟ وكانا فى أثناء هذا الحديث قد أخذا مكانهما الى المائدة وجها لوجه . وكان صاحبها حائر النظر بعض الشيء يردده بين السماء والأرض ، ويردده بين قطع الزهر المنتثرة من حوله وبين آنية الزهر القائمة على المائدة ، وبين أوراق الورد المنثورة بين يديه . قالت : الست قد زعمت لى منذ أيام انك تحب لثم الورد وشم القرنفل ؟ فهذا هو الورد تستطيع أن تمتع نفسك به كيف احببت ، انظر اليه مختلفا الوانه مستويا على سوقه ، بعضه قد هام بالحياة والضوء فانبسط لهما انبساطا واخذ يلتهمهما التهاماً ، وبعضة قد احبهما ، ولكنه يسمو اليهما فى استحياء فيتفتح لهما قليلا قليلا ، وبعضه يحسهما وينعم بهما ، ولكنه لايكاد يشعر بهذا الحس وهذا النعيم ، فهو أكمام لم تتفتح بعد . وانظر اليه اسيرا فى هذه الآنية لم يبق فيه من الحياة الا ذماء يسير يمسكه عليه هذا الماء الذى تحتويه الآنية . وانظر اليه صريعا قد فقد الحياة وتفرقت أوراقه ، وانتثرت بين يديك غضة ، ولكنها تسرع الى الذبول أو يسرع اليها الذبول . وهذه زهرات من قرنفل قد هيئت لك وفرقت فى آنية الورد تبعث اليك عرفها هادئا قويا . فماذا تريد فوق هذا ؟ قال : لا أريد الا أن تمضى فى هذا الحديث الذى اخذت فيه منذ الآن ، فانى لا أعرف ترجمة عن هذا الصمت الذي كنت اريد ان اسمع له ابلغ من هذه الالفاظ التى ينثرها حديثك العذب . قالت : ومازلت مشغوفا بالعبث لاتفرغ منه الا لتعود اليه . لقد انبأتني عن حبك للورد والقرنفل ، فها أنت ذا بين الورد والقرنفل ، فحدثنى أنت بحديثهما فانت أعلم به واقدر عليه منى . قال :

ما اعرف يا آنسة ان لهما حديثا يحكى ، فان كان لهما حديث فما اعرف أن أحدا يستطيع أن يحكيه غيرهما فاستمعي لهما ان شئت ، وغيرك فاسمعيني حديثهما ان شئت ، فانما انت زهرة بين الزهر . قالت : كأنك تريد ان تحفظني . فاعلم أنك لن تبلغ ماتريد ، ولن تثير حفيظتي ، ولن تصرفني عما ازمعت من ان اسمع منك حديث الورد والقرنفل . فلا تلتو به فلن ينفعك الالتواء . واقبلت خادم تسعى وهي تحمل صينية عليها ابريق وأكواب . فوضعت ابريقها ، وصفت اكوابها ، وانصرفت متثاقلة . وكانت عجوزا شمطاء قد انحنت قامتها ، واسرف الذبول فى وجهها ، فلم تكد تبقي فيه قطرة من حياة . وكان منظرها فى هذا الفناء مناقضا أشد المناقضة لما يحيط بها من هذه الحياة القوية ، فهم ان يتكلم ، ولكن صاحبته قالت وقد فهمت عنه ما كان يريد : ومع ذلك فهي انشط منك للحياة ، واحرص منك على نعيمها ولذاتها ، لايفوتها موسم ، ولا يفلت منها عيد ، ولا تقصر عن فرصة ان سنحت لها لتشترك فيما يراه الناس سعادة ونعيما أولهوا وصفوا . وهي بعد هذا كله صماء مغرقة فى الصمم تستطيع أن تتحدث اليها وتصيح بها فلن تسمع لك ولن تفهم عنك . وهي بعد هذا وذاك قد نيفت على الستين . ولكن هات حديث الورد والقرنفل .

ثم عمدت الى الابريق فملأت منه قدحين وهي تقول : لقد انسيت ، فهذا يوم الورد تستطيع ان تراه وان تشمه ، وان تلمسه وان تلثمه ، وان تشربه أيضا . فليس فى هذا القدح بين يديك إلا ماء الورد .

والآن تحدث ، فقد يحسن الحديث . قال : أى حديث يحسن فى مصر وما اعرف بلدا افضح لسر الحديث ، واكلف بنشره واذاعته من هذا البلد . اتذكرين ؟ قالت : وكيف لا اذكر ! انك تشير الى مجلسنا ذاك على شاطىء النيل ، وإلى حديثنا هناك عن شيوخ الادب وشبابه . فقد نشر هذا الحديث فى الرسالة . قال : ومع ذلك فلم يكن فى مجلسنا ولا قريبا منه احد . قالت : ولست انت قد القيته الى من اذاعه ، هذا شيء لاشك فيه . قال : ولا أنت ، هذا شيء لم يخطر لى . قالت : واذن ؟ قال : واذن فهو طائر من هذه الطير التى تؤوى الي الاغصان اذا كان الاصيل ودنا الليل فنسمع حديث الناس وتعيه ، وتلقيه في روع الكتاب والشعراء . أو هو جني من هذه الجن التى تألف شاطىء النيل فتقيم فى ظل الاشجار التى تقوم عليه ، أو تسكن تحت هذا الماء الذى يجرى فيه ، وتسمع احاديث الناس والاشياء وتعيها فتنقلها الى الكتاب والشعراء وتنطق بها السنتهم ، وتجرى بها اقلامهم . ولهذا لست مسرفا فى حب الحديث ، وفى حب الحديث عن هؤلاء الذين لايحبون ان يتحدث الناس عنهم الا بما يريدون لا بما يريد الناس . قالت : من الظواهر التى لا تحتاج ملاحظتها الى دقة ولا الي ذكاء ان مصر مفشية للسر ، قليلة الحرص على الكتمان . انظر الى بيئاتها المختلفة ، فلن ترى لها سرا . أحاديث ساستها وقادتها وادبائها واصحاب الاعمال فيها ذائعة شائعة يعرفها الناس جميعا ويتناقلها الناس جميعا . ومصدر هذا فى أكبر الظن ان طبيعة مصر نفسها صافية واضحة ، مسرفة فى الصفاء والوضوح ، سماؤها صحو دائما ، لايتكاثف فيها الغمام ، ولا يتراكم فيها السحاب ، وارضها مبسوطة هينة لاترتفع فيها الجبال الشاهقة ، ولا تنتشر فيها الكهوف والاغوار ، ولاتنبت فيها الغابات الكثيفة الملتفة ، فامرها كله ظاهر ، وحديثها كله شائع ، وشمسها المشرقة دائما لاتؤتمن على سر مصون . على اننا لم نقل فى حديثنا ذاك شيئا يسوء الادباء أو يغضب أحدا ، فليس من اذاعته بأس وان كنت لا أحب ذلك ، ولا ارتاح اليه ، ولاأخفى عليك انى انما آثرت أن يكون اجتماعنا الليلة عندى لأنى واثقة أن لنا من العزلة ما نحب ، وبأن أحدا لن يستطيع ان يندس لنا ، أو يتسمع علينا . قالت : الا هذه الطير التى تؤوى الى الاغصان اذا اقبل الاصيل ودنا الليل ، والا هذه الجن التى تستظل بالاشجار وتتضاءل احيانا حتى تتخذ لنفسها منازل فى ثنايا العشب وبين أوراق الأزهار . فى هذه الطير ، وفى هذه الجن ، وفيما يحيط بنا من الزهر والشجر من يسمع لنا وينم بما نتساقى من ماء الورد ، وما يجرى بيننا من لغو الحديث ، قالت : وأي بأس بأن يذاع ما يجري بيننا من لغو الحديث ؟ انما يكره الناس جد الحديث ويخافونه ، فاما لغو الحديث فالناس مزدرون له ، أو راغبون فيه . قال : وهل تظنين انا نستطيع ان نأخذ بالجد حين نعرض للحديث عن الأدب والأدباء فى مصر ؟ وأين تجدين الجد فى حياة الادب والادباء ؟ أتجدينه فى هذا الحوار الذى يطول ويطول حتى يثقل ويمل حول ألفاظ وقعت فى كتاب ، أو حول رأي رآه ناقد فى كتاب ، أو حول حديث كان بين كاتبين ، او مناظرة يسيرة كانت بين أديبين ؟ أليس هذا كله دليلا على فراغ البال واحتياج الادباء الى ما يشغلون به انفسهم عن هذه الاحاديث الطوال الثقال التى تضيع الوقت ، وتفنى الجهد دون ان تنفع او تفيد ؟ قالت

« البقية على صفحة ٤٠ »